

## سورة الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ۝ ﴾  
 أُمُّ الْكِتَابِ : اللوح المحفوظ أو العلم الأزلي .

المراد بـ ﴿ أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ هو اللوح المحفوظ عند الله . وقد أثبت الله في اللوح المحفوظ ذلك الدين الأصيل الذي يطلبه من البشر ، وهذا الدين الأصيل هو الذي نزل على الأنبياء والمرسلين بلغات شتى على اختلاف العصور ، وقد نزل على نبي آخر الزمان - ﷺ - باللغة العربية ، وهذا القرآن العربي هو وحده ممثل للدين الإلهي الحق في علمنا الراهن ، وإنما المسئولية الآن ملقاة على عواتق حاملي القرآن الكريم أن يوصلوا رسالته إلى شعوب الأرض كافة بنقله إلى سائر لغات العالم ، حتى يتمكن الآخرون بدورهم من أن يفهموه تماماً كما فهمه العرب . وكون القرآن متصفاً بالعلو ومليئاً بالحكمة دليل على كونه كتاباً إلهياً ، فلغة القرآن الكريم ومضامينه على مستوى العظمة الإلهية تماماً ، وهذا في حد ذاته برهان صارخ بأنه كتاب الله ، ولو أن القرآن كان كلاماً إنسانياً ، لم يكن ليلعب ما هو عليه الآن من هذا المستوى غير العادي من العظمة والروعة والجلال !!

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ۝ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝ ﴾

أَفَنضِرْبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ: أفنترك تذكيركم وإلزامكم الحجة بإنزال القرآن .  
صَفْحاً: إعراضاً أو معرضين عنكم .

أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ؟: لكونكم مفرطين في الجهالة والضلالة لا نتركه .  
وَكَمْ أَرْسَلْنَا: كثيراً أرسلنا .  
فِي الْأَوَّلِينَ: في الأمم السابقة .  
بَطْشاً: قوة .

هناك عدد لا يحصى من النامس في العالم اليوم يردد أسماء الأنبياء السابقين بمنتهى التوقير والاحترام ، وهذا الوضع يبدو مثيراً للدهشة والاستغراب ، إذ قارناه بما قوبل به أولئك الأنبياء - بما فيهم رسول الإسلام - من التحقير والاستهزاء من قبل معاصريهم !.

وليس مرجع ذلك إلى كون الناس في سالف الدهور همجيين ، وكونهم اليوم في أعلى مراتب التحضر والمدنية ، وإنما يرجع السبب في ذلك إلى فارق الزمن ، فاليوم ، بعد أن بَعُدَ العهد ، ومضت قرون متطاولة ، قد صار اسم كل نبي من الأنبياء مقروناً بالأعجاز التاريخية ، مما يجعل عبدة الظواهر اليوم سرعان ما يتعرفون عليه بدون عوائق ، أما بالنسبة إلى معاصريه ، فقد كان النبي يبدو في صورة إنسانٍ عاديٍ ليس غير ، وللتعرف عليه حينذاك - بوصفه نبياً - كان لابد من توفر بصيرٍ ثاقب نفاذ إلى الحقيقة ، وليس من شك في أن هذا البصر النفاذ - كان ولا يزال - أقل شيء وُجِدَ في هذا العالم!

ومهما كان سلوك المخاطبين لدعوة الحق خاطئاً أو حتى سيئاً ، فإن الداعي لا يبرح يواصل عمله الدعوي بدأبٍ ونشاطٍ ، إلى أن يحين الوقت الذي يقضي الله فيه من عنده بما يحسم الصراع الدائر بين دعاة الحق ومعارضيه .

﴿ وَلِئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾  
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢﴾  
 وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿٣﴾  
 وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٤﴾  
 لَتَسْتُورُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ  
 الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٥﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿٦﴾ ﴾

مَثَلُ الْأَوَّلِينَ : صفتهم أو قصتهم العجيبة .

الْأَرْضَ مَهْدًا : فراشاً ممهداً للاستقرار عليها .

سُبُلًا : طرقاً تسلكونها ، أو معاش .

مَاءً بِقَدَرٍ : بتقدير محكم أو بمقدار الحاجة .

فَأَنْشَرْنَا بِهِ : فأحيينا بالماء .

خَلَقَ الْأَزْوَاجَ : أوجد أصناف المخلوقات وأنواعها .

وَالْأَنْعَامِ : ومن الأنعام وهو الإبل .

لَتَسْتُورُوا : لتستقروا ، وتستعلوا .

سَخَّرَ : ذلل .

إن أكثر الناس كانوا - ولا يزالون - في كل زمانٍ يؤمنون بأن خالق هذا الكون

ومالكة هو الله ، وهو الذي منحنا كل ما نحتاج إليه في الحياة الدنيا .

إن إيجاد الكون وتوفير الأسباب الضرورية للحياة فوق الأرض ، لعمل عظيم هائل لدرجة أنه لا يمكن لشخصٍ ما إن يعزوه إلى أحدٍ غير الله الواحد الأحد .

وهذا الإقرار يقضي بأن يكون الله هو موضع اهتمام الإنسان الأكبر ، وأن تصطبغ حياته بالصبغة الإلهية ، ولكن الإنسان يتخذ من أشياء أخرى مقصوده ، ويجعل من غير الله مركز اهتمامه وتوجهاته .

لقد كشف الله الحقيقة بواسطة أنبيائه ، ثم إنه تعالى أنشأ هذا الكون بحيث صار بكل موجوداته وظواهره تمثيلاً عملياً حياً للحقائق المعنوية .

ومن هذه الحقائق مثلاً أن الإنسان سيبعث بعد موته من جديد ، ويتم تمثيل هذه الحقيقة مرةً بعد أخرى على مستوى النبات ، حيث يشاهد الإنسان كل عام أن الأرض قد يبست ، ثم ينزل عليها المطر ، فإذا بها تعود مرةً أخرى ناضرة خضراء .

وفي هذا إشارة بليغة إلى أن الإنسان بدوره سوف يُبعث بعد موته من جديد كذلك .

والميزة الثانية للعالم الراهن تكمن في كونه ملائماً للإنسان على نحوٍ مدهشٍ ، فقد صُنِع كل شيءٍ هنا بحيث يتمكن الإنسان من استخدامه لتحقيق شتى أغراضه كما يشاء ، مما يقتضي أن تستيقظ في نفس الإنسان عواطف الشكر والعرفان .

فينبغي له إذا استعمل شيئاً من مصنوعات الله أن يخضع قلبه لله ، وتفويض من لسانه كلمات الاعتراف والحمد والابتهاال .

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٧٤﴾ أَمْ آخَذَ مِمَّا  
تَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ  
وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ أَوْ مَنْ يَنْشُؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٧٧﴾  
وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ  
وَيُسْأَلُونَ ﴿١٧٨﴾

مُفْرِنِينَ : مطيقين وغالين أو ضابطين .

وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ : أخلصكم وآثركم بهم .

مَثَلًا : شبهها ومائثلاً .

وَهُوَ كَظِيمٌ : مملوء في قلبه غيظاً وغمماً .

يُنشأُ فِي الْحِلْيَةِ : يربى في الزينة والنعمة (البنات) .

فِي الْخِصَامِ : المخاصمة والجدال .

من صور الإشراك بالله أن يتخذ المرء من أحد شريكاً في الذات الإلهية ، كالاعتقاد  
أن الملائكة بنات الله ، أو القول بأن المسيح ابن الله ، أو كنظرية وحدة الوجود التي  
تفسر الكون باعتبار كل موجوداته أجزاء من ذات الله .

إن كل العقائد من هذا النوع باطلة محضة لا تستند إلى أي دليل حقيقي مطلقاً .

والآية رقم (١٨) قد تضمنت وصفين جامعين يتميز بهما صنف الإناث عن صنف الرجال : أما أحدهما : فهو أن المرأة ميالة بطبعها إلى الزينة والتحلي . وأما الآخر : فيكمن في كونها لا تقدر عند الجدال والخصومة على التعبير عن موقفها بأسلوب قوي مؤثر . وهذا النقص الطبيعي في صنف الإناث حقيقة تفرض نفسها . ونظراً إلى هذه الحقيقة ذاتها أخذ الإسلام بمبدأ تقسيم الواجبات الاجتماعية بين الجنسين : إذ ألقي على عاتق الرجل تبعة العمل خارج البيت ، بينما جعل المرأة مسئولة عن تدبير شئون البيت الداخلية !.

﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ۗ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٨﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ ۖ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿١٩﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴿ ٢٢ ﴾ قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۗ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٣﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۗ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ ۝﴾

يَخْرُصُونَ : يكذبون فيما قالوه .

عَلَىٰ أُمَّةٍ : على دين وطريقة تؤم وتتصد .

قَالَ مُتْرَفُوهَا : متنعموها المنعمسون في شهواتهم .

إن المرء لا يعدم الفرص لأي عمل يريد ممارسته في العالم الراهن ؛ مما يوقع كثيراً من الناس في سوء فهم ، مؤداه أن كل ما يفعلونه هو الصواب عينه ، وأنهم لو كانوا على

خطأ، لم يفهم النجاح في ترويح طريقتهم، ومثل هذه الأقاويل يرددها غالباً أولئك الذين ينتمون إلى طبقة "المترفين".

غير أن هذا سوء فهم خطير جداً، فإن رواج طريقة ما في رحاب هذا العالم إنما يرجع إلى حرية الامتحان المتاحة هنا للجميع، للصالحين والطالحين على سواء، وحيث إن فترة الامتحان ستكون قد انتهت في عالم الآخرة، فلن يجد أحد هناك هذه الفرصة بطبيعة الحال، وأشد مواجهة أو مقاومة ظل يتعرض لها دين الأنبياء والرسل على اختلاف العصور هي التي كانت بينه وبين دين الآباء الموروث، إذ إن "الآباء" يكونون قد تحولوا عند الأمم إلى "أكابر"، ويبدو لهم نبي العصر - بالقياس إليهم - من أصاغر الناس؛ ولهذا السبب يعود مستحيلاً على القوم أن يختاروا دين أحد الصغار متخليين عن دين الكبار، غير أن تكذيب أولئك "الصغار" هو الذي جرّ على الشعوب المهالكة ذلك العذاب الذي كان في حسابها أنها لن تتعرض له إلا بتكذيب "الكبار" !!

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿١٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَتُولَاءِ وءَابَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

إِنِّي بَرَاءٌ : بريء .

فَطَرَنِي : خلقتني وأبدعني .

كَلِمَةً بَاقِيَةً : كلمة التوحيد ، أو البراءة .

فِي عَقْبِهِ : ذريته إلى يوم القيامة .

إن كلمة إبراهيم المذكورة هنا ، والتي تضمنت إعلان التوحيد الخالص والتبرؤ المطلق من عبادة غير الله ، كانت قد صدرت من لسانه عليه السلام في المرحلة الأخيرة من حياته الدعوية ، ولم تكن هذه الكلمة مجموعة من بعض الحروف والألفاظ ، وإنما كانت هي خلاصة تاريخ حافل عظيم ، فحين بلغ سيدنا إبراهيم سن التمييز اكتشف أن إله الإنسان إله واحد ليس غير ، وأن كل الآلهة سواه باطلة محضة لا أصل لها ولا حقيقة. ولقد بنى عليه السلام حياته على أساس من هذه العقيدة ، كما نهض يدعو إليها أفراد أسرته وقومه ، وما برح عليه السلام قائماً بذلك ، باذلاً جهد طاقته بدأب ونشاط في سبيل دعوته ، حتى غدا كونه موحداً هو الطابع المميز له وهويته التي راح يعرف بها في بيئته ، وبعد ممارسة حياة طويلة كهذه ، عندما قال عليه السلام الكلمة المذكورة ، وهو يغادر وطنه مهاجراً ، فكان من الطبيعي أن تعود كلمته تلك "كلمة باقية" ، فإنها كانت مرتبطة بحادثة تتجدد ذكراها في النفوس كلما ذكر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - .

وقد كان المفروض أن تكون سنة إبراهيم العظيمة هذه معلماً أو نبزاً مضيئاً يهتدي به ذريته من بعده إلى طريق الحق ، غير أن العكوف على متاع الدنيا ، جعل من جاء في عقبه غافلين عن هذا ، لدرجة أنه لما أتاهم عبد من عباد الله في العهد الأخير يذكرهم بما نسوه من درس ماضيهم ، لم يلبثوا أن تلقوه بالإنكار والتكذيب !

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ۚ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ حُنًّ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۚ ۝ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوبِتَهُمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيَّهَا يَظْهَرُونَ ۚ ۝ وَلِيُوبِتَهُمْ أَتُونًا وَسُرُرًا عَلَيَّهَا يَتَّكُونَ ۚ ۝ وَزُخْرَفًا ۚ وَإِن كُنتُمْ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

وَالْأَخْرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾

مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ : من إحدى القريتين مكة والطائف .

سُخْرِيًّا : مسخراً في العمل ، مستخدماً فيه .

أُمَّةً وَاحِدَةً : مطبقة على الكفر حبا للدنيا .

وَمَعَارِجَ : مصاعد ومراقي ودرجا من فضة

يَظْهَرُونَ : يصعدون ويرتقون .

وَزُخْرُفًا : ذهباً ، أو زينة مزوقة .

لِمَا مَتَاعُ : لإمتاع .

لما ظهر رسول الإسلام في مكة ، كان يبدو لمن حوله أنه إنسان عادي ، فتساءل الناس قائلين : إذا كان الله يريد أن يبعث مندوباً له لأجل هدايتنا ، فهلاً وقع اختياره لهذا الغرض على عظيم من عظماء هاتين المدينتين المركزيتين (مكة والطائف) من جزيرة العرب !؟ غير أن هذا الاعتراض إنما كان نابعاً من قصور نظرهم ، فالإنسان لا يكاد يرى إلا الحاضر المائل أمامه وحده ، بينما كان التعرف على عظمة رسول الإسلام يتطلب عيناً تبصر المستقبل ، وبما أن القوم لم يكونوا يمتلكون هذا البصر البعيد المدى ، عجزوا بالتالي عن تفهم عظمة رسول الإسلام ﷺ .

وكان السبب في استصغار الناس لرسول الإسلام يرجع إلى أن حياته - عليه الصلاة والسلام - كانت خالية من بريق الأشياء المادية وبهرجها ، ولكن الأشياء المادية لا أهمية لها عند الله عز وجل . والواقع أن هذه الأشياء لمن زهادة القيمة والهووان على الله بحيث لو شاء تعالى لأعطى الناس كلهم أكواماً هائلةً من الذهب والفضة ، إلا أنه تعالى لم يفعل ذلك ، لأن الناس كانوا سيعودون بعدئذ مشغولين بهذه الأشياء وحدها ،

ولا يستطيعون الانطلاق من أسرها حتى يدركوا الحقيقة في صورتها المجردة الخالصة !

﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (٢٨) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَتَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَبْسُ الْقَرِينُ ﴿٣٠﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُرٌ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴿

وَمَنْ يَعِشْ : من يتعام ويعرض ويتغافل .

نُقِيضْ لَهُ : نسب ، أو نتح له .

لَهُ قَرِينٌ : مصاحب له لا يفارقه .

الإعراض عن النصيحة (الذكر) هو أن تتجلى أمامه الحقيقة الإلهية مصحوبةً بأدلة لا يستطيع دحضها أو إنكارها ، إلا أنه يقابلها بالإهمال واللامبالاة حفاظاً على مصالحه الذاتية! ومثل هذا الشخص ربما يلجأ إلى إثارة صنوف الأباطيل ضدها تبريراً لموقفه ، وهذا هو الوقت الذي يجد فيه الشيطان فرصته لكي يتسلط عليه ، ويسوق عقله في اتجاه خاطئ ، فلا يزال الشيطان يلهيه بالتأويلات المفترضة في محاولة إقناعه بأنه على الحق والصواب ، وإنما ينكشف هذا الخداع حين يُفجأ المرء بالموت ، فيقام بين يدي ربه للحساب الأخير !

وفي الحياة الدنيا طالما يتخذ المرء قرينه وصديقه ممن يبالئه على كذبه وانحرافه ، ولكنه سوف يلعن كل القرناء والأصدقاء من هذا النوع في الآخرة ، ويود لو كانت بينه وبينهم مسافة شاسعة لدرجة أنه لم ير وجه أحدٍ منهم ولا سمع صوته أبداً !!

﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣٢) فَأَمَّا

تَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿١١﴾ أَوْ نُزَيِّنَكَ الَّذِي وَعَدْتَنَّهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿١٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۗ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿١٤﴾ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾

لو أن ذا بصير أغمض عينيه ، لما أمكنه أن يرى شيئاً ، ولو أن ذا سَمْعٍ سدَّ أذنيه ، لما استطاع أن يسمع شيئاً... ، وهكذا مَنْ لا يستعمل عقله ، ويأخذ في السير على هواه معطلاً عقله ، فإن إفهام شخص كهذا وتذكيره لن يجدي فتيلاً ، حيث إن عملية الفهم والتذكر إنما تتم بواسطة العقل ، وهذا قد عطلَّ عقله وغطاه تحت ستارٍ - من شهواته ورغباته - كثيفٍ ، على أن المدعو ، مهما يكن سلوكه وموقفه ، فإن الداعي مطالب على كل حالٍ ، بمواصلة نشاطه الدعوي بجدٍّ ، وإخلاص إلى أن يبلغ حد الإعذار ، وإلزام الحجة .

ومع أن الداعي إلى الحق يكون إنساناً ، إلا أن أمر الحق هو أمر الله ، وقد يحسب المرء ، وهو ينكر داعية الحق ، أنه قد نجا من ضربة الحق ، بينما هو لا يلبث أن يقع في الوقت نفسه تحت ضربة الله وسخطه .. وسيرتجف فؤاد المرء بشدة ويشعر بقشعريرة تدب في أوصاله ، وهو يقابل داعي الحق بالإعراض والإهمال ، فيما إذا هو أدرك هذا السر حق الإدراك ، لأنه سيعلم عندئذ أن إهمال داعية الحق إهمال للحق نفسه ، وأن إهمال الحق هو إهمال الله - عز وجل !!

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۗ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا

الَسَّاحِرُ آدَعُ لَنَا رَبَّنَا بِمَا عٰهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿١٣٥﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ  
الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٦﴾

عرض موسى دعوة التوحيد على فرعون ، مبرهنأ على صدقه بمعجزة العصا واليد،  
و حين رأى فرعون وملؤه ذلك راحوا يضحكون منه ساخرين ، وكان السبب في ذلك  
أنهم لم يروا موسى عليه السلام في دعوته ، وإنما رأوه في شخصه ، حيث بدا لهم ظاهراً أن  
شخصية موسى أضال شأناً من شخصياتهم هم ، كما ظنوا بالنسبة إلى معجزته أنها  
سحر ، وأن بإمكان سحرة الدولة أن يأتوا بسحر مثله !! وهذا ما حدث - ولا يزال -  
مع دعوة الحق دائماً ، فالناس يرفضون الدعوة بالنظر إلى شخصية الداعي ، ويُعرضون  
عن الآيات بقياسها على الوقائع العادية المألوفة.

ولما أبى فرعون وأصحابه التسليم بما جاء به موسى ، أصابهم الله بشتى ألوان  
العقوبات تحذيراً لهم وتنبهاً ، حتى يرجعوا إلى الله تعالى ، وقد جاء ذكر هذه العقوبات  
التحذيرية بالتفصيل في سورة الأعراف (١٣٣-١٣٥) ، وكانت كل عقوبة تنزل بدعاء  
موسى ثم تنتهي بدعائه كذلك ، وقد كان ذلك سبباً إضافياً من شأنه أن يبعثهم على  
الرجوع والإنابة ، ولكنهم ما رجعوا ولا أنابوا ... ، والحقيقة هي أن الذين لا يؤمنون  
بالدليل والبرهان ، فإنهم لا يؤمنون بالتحذير والبلاء كذلك ، اللهم إلا أن يحاصرهم  
نهائياً عذاب الآخرة الذي لا يُرد !!

﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي  
مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿١٣٦﴾ أَمْ أَرَأَيْتُمْ مَنِ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿١٣٧﴾  
فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلٰٓئِكَةُ مُقَرَّرِينَ ﴿١٣٨﴾ فَاسْتَخَفَّ  
قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٣٩﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اٰنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ

فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٠٠﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴿١٠٠﴾

هُوَ مَهِينٌ : ضعيف حقير .

يُبَيِّنُ : يفصح الكلام للثغة في لسانه .

مُقْتَرِنِينَ : مقرونين به يصدقونه .

فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ : وجدهم خفاف العقول .

أَسْفُونَا : أغضبونا أشد الغضب بأعمالهم .

سَلَفًا : قدوة للكفار في استحقاق العقاب .

وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ : عظة وعبرة للكفار بعدهم .

إن منكري الحق إنما قابلوا الحق بالإنكار دوماً ناظرين إلى ضالة شأن الداعي إليه ومكانته العادية ، ففي مصر كان فرعون حاكم البلاد الأوحى ، وكانت الأنهار المتفرعة من النيل تجري بحسب أمره ومشئته ، هذا إلى جانب كون كل أسباب العزة والسلطان والآبهة متوفرة لديه ، بينما كان موسى يبدو إنساناً عادياً لا يملك جاهاً ولا أبهة سلطان ، وبالإشارة إلى هذا الفارق المظهري ذاته استغفل فرعون قومه وأغواهم ، فما لبثوا أن مالؤوه على إنكار موسى وتكذيبه .

ويظهر أن قوم فرعون إنما وقفوا إلى جانبه وأطاعوه بناءً على مثل هذه الأدلة (السطحية) ، ولكن الحقيقة هي أن السبب في ذلك كان يرجع إلى ضعف القوم أنفسهم ، وليس إلى قوة أدلة فرعون ، فاتباع موسى في ذلك الوقت كان معناه تحطيم خريطة الحياة الجاهزة ، وقليل جداً هم الذين يتجرؤون على مناصرة الحق بتحطيم خريطة حياتهم الجاهزة... ، ومن ثم فحين تعرض فرعون لعذاب الله جزاء إنكار الحق ، لم يلبث قومه بدورهم أن صاروا معه ضحايا العذاب الإلهي .

﴿ وَمَا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّهُ لَعَلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٨﴾

مِنْهُ يَصِدُّونَ : من أجله يضجون ويصيحون فرحاً وجدلاً .

قَوْمٌ خَصِمُونَ : لد شداد الخصومة بالباطل .

مَثَلًا : آية وعبرة عجيبة كالمثل السائر .

لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ : بدلکم . أو لولدنا منكم .

وَإِنَّهُ لَعَلْمٌ لِلسَّاعَةِ : يعلم قربها بنزوله ﴿٢٦﴾ .

فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا : فلا تشكن في قيامها .

يا مكان المرء في عالمنا الراهن أن يلوي مقصود أي كلام عن استقامته ، ويستخرج منه عكس مراده الحقيقي . ومن أمثلة ذلك أن رسول الله - ﷺ - قال ذات يوم ما معناه : " ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خير " ، فاعترض المعارضون عليه قائلين : إن هؤلاء النصارى يعبدون المسيح ، إذن ، أفليس في المسيح هو الآخر خير " ؟ !

ومن الواضح أن هذا لم يكن إلا اعتراضاً فارغاً وشبههً مفتعلةً ؛ فإن قول الرسول ﷺ كان موجهاً أساساً إلى العابد دون المعبود ، وحتى لو اعتبرناه موجهاً إلى المعبود ، فإنها كان المراد به صراحةً هو الذي يرضى بتأليه نفسه ، ولكن المرء إذا لم يأخذ حديثاً ما بماخذه المستقيم ، فإنه يستطيع أن يعكس مفهومه ، مهما كان الحديث في حد ذاته

صحيحاً مستقيماً المعنى .

لقد كانت شخصية عيسى عليه السلام من بعض النواحي مشابهةً للملائكة ، ومن هنا ألهه الكثيرون من أتباعه وعبدوه ، غير أن خلق عيسى الملكوتي كان مثلاً على قدرة الله وليس مثلاً على قدرة عيسى الذاتية . والحقيقة أن عملية خلق كهذه ليست بصعبة على الله إطلاقاً ، إذ لو شاء تعالى لجعل من سكان الأرض كافة ملائكةً ، ولكن هؤلاء الملائكة سيظلون ؛ على أية حال ملائكةً ، ولن يعودوا أبداً ألهةً يُعبدون !!

وقد أيد الله عيسى بمعجزات وخوارق عديدة ، منها أنه كان يُحيى الموتى ، وكان ينفخ في الطين هيئة طير ، فتدب فيه الروح والحياة والحركة ... إلخ ، وهذا كله كان في الأصل آية إلهية أظهرت لتدل على إمكان الحياة بعد الموت ، ولكن الناس بدل أن يستلهموا منها الدرس الحقيقي المطلوب ، راحوا يعبدون المسيح عليه السلام باعتباره فوق البشر .. وهكذا تتجلى الآيات الإلهية دوماً في صور شتى ، وإنها لتفيدنا عبراً هامة جداً فيما لو اعتبرناها آية ، أما لو تم اعتبارها شيئاً آخر غير الآية ، فإنها تصبح سبباً لوقوع البشر في الضلالة والانحراف . والشيطان يحاول دائماً أن يحول بين المرء وبين اعتباره واتعاظه بالآيات الإلهية .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۚ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْيَمِّ ۚ ﴾

قَوَيْلٌ : هلاك أو حسرة أو شدة عذاب .

المراد بـ "الحكمة" هنا روح الدين .. وأما "الصراط المستقيم" فالمقصود منه الشيء نفسه الذي أطلق عليه ضمن هذه الآيات "تقوى الله، وعبادته وطاعة رسوله". وهذا هو لبّ الدين وجوهره، وقد انتهى الأمر باليهود في القرون المتأخرة إلى أنهم فقدوا روح الدين، واستخرجوا عن طريق التفريع والتنقيح في أصول الدين مسائل جديدة لا تحصى، ومازالت هذه المسائل المستحدثة موجودة في كتب اليهود حتى يوم الناس هذا. وبسبب هذه الإضافات المزعومة ذاتها، انقسم القوم إلى طوائف شتى، حيث أكد البعض على مسألة خلافية معينة، بينما ركز بعضهم على مسألة خلافية أخرى، وهكذا تحول الدين الواحد عندهم إلى أديان متعددة. ولقد جاء سيدنا المسيح عليه السلام لكي يلفت انتباه اليهود إلى أن الأهمية في الدين إنما هي للروح وحده دون الشكليات والمظاهر، وأن الشيء الذي يتوقف عليه خلاص المرء يتمثل في اتباع الدين المنزل من عند الله، وليس في اتباع الدين الذي وضعتموه من تلقاء أنفسكم !!

وقد قرر سيدنا المسيح أن جوهر الدين هو أن تحافوا الله، وألا تعبدوا إلا إياه، ولا تشاركوا بعبادته أحداً، وأن تتخذوا من الرسول قدوةً في شئون الحياة كلها. أما ما استحدثتم من مسائل لا تحصى بتطعكم وتفريعاتكم، فإنها هي إضافاتكم أنتم، لا تمت إلى صميم الدين الإلهي بصلّة، وإنما عليكم أن تستمسكوا بروح الدين الأصيل وتتخلوا عن هذه الإضافات. وأحاديث سيدنا المسيح عليه السلام هذه مازالت موجودة في الأناجيل حتى اليوم!

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٣٦) الْأَخْلَاءُ  
يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٣٧﴾ يَنْعَبَادِ لَّا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا  
أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ  
أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ مُحْبَرُونَ ﴿٤٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا

تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۗ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٦﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي  
 أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٨﴾  
 هَلْ يَنْظُرُونَ : هل ينتظرون .

بَعْتَةً : فجأة .

الْأَخِلَاءُ : الأحباء في غير ذات الله .

تُخْبِرُونَ : تسرون سروراً ظاهراً الأثر .

وَأَكْوَابٍ : أقداح لا عري لها ولا خراطيم .

حين يتبنى المرء في الدنيا موقفاً معادياً للحق ، فإنه يجد من حوله أصدقاء كثيرين  
 يوالونه ويشدون من أزره، واعتماداً على أولئك الأصدقاء لا يفتأ المرء يزداد تعنتاً وعناداً  
 وطفغياناً، ولكن كل هؤلاء الأصدقاء لن يلبشوا أن يتخلوا عنه ويخذلوه يوم  
 القيامة، وستبقى يومئذ صداقة واحدة فقط، وهي التي قامت على أساس من خوف الله  
 وتقواه .

إن حياة العبودية للحق في الدنيا محفوفة بألوان شتى من الأخطار والمحاذير ، بيد أن  
 جزاءها في الآخرة رائع بحيث سيفوز المرء هناك بالنجاة والأمان المطلق الدائم من كل  
 أنواع الحزن والخوف والألم . والذين يثقون بهذا الوعد الإلهي أتم الثقة ، هم وحدهم  
 يستطيعون الثبات على جادة الحق في العالم الراهن، وسيعطيهم الله في الآخرة كل ما  
 كانوا قد فقدوه في الحياة الدنيا لأجل الله - سبحانه وتعالى !

﴿ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ ﴿٧٩﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ  
 ﴿٨٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ

قَالَ إِنَّكُمْ مَذْكُوتٌ ﴿٣٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ  
أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرَمُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا  
لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾

لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ : لا يخفف عنهم .

مُبْلِسُونَ : ساكنون أو حزينون من شدة اليأس .

لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ : ليمتنا حتى نخلص من هذا العذاب .

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً : بل أحكموا كيده له ﴿٣٩﴾ .

وَنَجْوَاهُمْ : تناجيهم فيما بينهم .

الأمل يخفف الإحساس بالألم دائماً ، فإذا أصيب المرء بألم ما ، وهو يأمل أن هذا الألم  
سيتهي يوماً ، تولدت في داخله مقدرة التحمل لذلك ، غير أن آلام جهنم هي آلام لن  
يكون للإنسان بارقة أمل في الخروج منها ، أما استغاثة أهل جهنم بالملائكة ، فإنها يكون  
ذلك بمثابة صرخة اضطرارية تعبر عن غاية عجزهم وضعفهم ، وإلا فالمستغيثون  
بأنفسهم سيكونون على علم بأن الله قد قضى بين العباد قضاء مبرماً ، وأنه لم يعد الآن  
إلى تغييره أو تحويله عنهم من سبيل !!

ودخول أحد الناس إلى جهنم إنما يكون جزاءً وفاقاً لتقصيره هو ، لقد زود الله  
الإنسان بقوة فهم وتمييز على أرفع مستوى ، وفتح أمامه سبل الحق والرشاد ، ولكن  
الإنسان أعرض عن الحق رغم علمه ومعرفته به ، ووصل به التمرد والعناد إلى حد أن  
تصدى لإنهاء حياة الداعي إلى الحق وتدميره ، فما عساه أن يكون مصيره ، سوى أن  
يُلْقَى به في عذابٍ دائمٍ لا يزول !!؟

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴾ ﴿٣٨﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٣٩﴾ فَذَرَهُمْ مَخوضًا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ  
الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴿

مَخوضًا: يدخلوا مداخل الباطل .

﴿ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴾ ﴿٣٨﴾ هذه الجملة تدل على أن العقيدة  
التي يجهر بها الرسول ، يعتبرها هي عين الحقيقة ، وأنه ليس واقفًا على أرضية التقليد  
القومي ، والعصبية الطائفية ، وإنما هو مرتكز على أرضية الدليل والبرهان ، ولقد جاء  
يدعو إلى هذه العقيدة لأن كل الحقائق تؤيدها وتشهد بصدقها . ومن هذا يتضح أن أمر  
الداعي يكون أمر الشعور بالحقيقة ، وليس أمر التقليد القومي . ومصنع الله الإبداعي ،  
هذا الذي يمتد أمامنا في صورة الأرض والسماء ، يدلنا على أن إلهه ليس إلا إلهًا واحدًا ،  
إن الكون بنظامه المحكم وتناسقه البديع ينفي أن يكون إلهه أكثر من إله واحد .

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٤١﴾ وَتَبَارَكَ  
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ  
تُرْجَعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴿

فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ : هو معبود في السماء .

وَتَبَارَكَ الَّذِي : تعالى أو تكاثر خيره وإحسانه .

إن الأرض والسماء تؤديان وظائفهما في غاية الانسجام والتوافق ، حيث يوجد في  
كلا العالمين - العلوي والسفلي - حكمة واحدة وعلم واحدة على أتم درجة وأكملها .  
وهذا دليل ناطق بأن ليس هناك إلا إله واحد هو الذي يدبر وحده شئون كل من

الأرض والسماء ، ويقوم وحده بإدارة نظامهما العجيب المدهش . والكون يعرفنا بقدره الله الهائلة ورحمته الواسعة في آن معاً ، وهذا يقتضي أن يكون المرء خائفاً من الله أشد الخوف ، وراجياً فضله تعالى أقوى الرجاء ، والذين يقيمون الدليل على هذا الشعور وهذا السلوك هم وحدهم أولئك الذين إذا لقوا ربهم أغدق عليهم شأيب رحمته إغداقاً ! .

﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠١) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿١٠٢﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّا هَنُؤَلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٣﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴿١٠٥﴾  
فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ : فكيف يصرفون عن عبادته تعالى .

وَقِيلَ لَهُ : وعنده علم قول الرسول ﷺ .

فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ : فأعرض عنهم .

سَلِّمْ : أمري تسلم ومتاركه لكم .

إن الشفاعة التي يتقدم بها الأنبياء ودعاة الحق يوم القيامة ليست في الحقيقة شفاعة ، وإنما هي شهادة ، وهي تعني أن يشهد المرء بشيء هو يعلمه شخصياً ، فحين تُعرض قضايا الناس في محكمة الآخرة ، فإن الله سبحانه رغم إحاطة علمه بكل شيء ، سيقوم من بين أهل المحشر - لمزيد التوكيد والتوثيق - عباده الذين عاصروا الأمم والشعوب ، واضطلعوا بإبلاغ رسالة الحق إليها ، فأمن بعضهم وكفر بعضهم ، ووقف قوم إلى جانب الحق ، بينما تصدى آخرون لمحاربة الحق . هذه التجربة التي عاشها أولئك الصالحون الأبرار سيحكونها أمام الله ، وسيكون ذلك تماماً كما يدلي أحد الشهود ببيان صادق أمام المحكمة في ضوء مشاهدته الذاتية .

هذا ، ولن يكون في مقدور أحد يوم القيامة أن يقوم شفيحاً لأحد من المجرمين ، بحيث يتوخى بشفاعته تغيير ذلك الحكم الإلهي الذي كان من المقرر صدوره في حقه بموجب العدل والواقع .. كلا .. فالله سبحانه أرفع بكثيرٍ من أن يحاول شخص في حضرته محاولة كهذه ، وعمل الدعوة إلى الحق عمل كله نصيحة ، حتى في المرحلة النهائية ، إذ يكون الداعي قد انكشف عليه بوضوح أن الناس لن يؤمنوا بدعوته على أية حال ، فإنه لا يلبث - مع ذلك - أن يتوجه إلى ربه يدعو للناس ، ولا يزال يتمنى لهم الخير صابراً على أذاهم وإساءتهم !!